الفصل الحادي عشر

انتقام يزيد بن معاوية

لما فرغ عبيد الله من كلامه قال له يزيد: «إلي الآن بأبي الحكم الطبيب».

فخرج عبيد الله إلى غرفته، وكان شمر في انتظاره هناك، فلما رآه قال: «ماذا فعل الخليفة؟».

قال: «لقد كشف المكيدة وتحقق قولنا. أتعرف منزل أبي الحكم الطبيب النصراني؟»

قال: «أعرفه، إنه بالقرب من هذا القصر».

قال: «سر إليه وأبلغه أن أمير المؤمنين يدعوه إليه الساعة».

فسار شمر، وعاد ابن زياد إلى يزيد فرآه جالساً وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً، فجعل يهون عليه ويهنئه بالسلامة قائلاً: «نحمد الله على أن لطف بمولانا وكشف لنا نيات أعدائنا، فلا تطلع شمس غداً إلا وقد قتل هذا الخائنان وارتاحت البلاد من شرهما، وما ذلك إلا لأن الله مؤيد سلطاننا رغم أهل العناد».

فانشرح صدر يزيد وقال: «بورك فيك يا عبيد الله وبورك في شمر، إنه والله ذو فضل علينا، وسنوليه عملاً ينتفع به إن شاء الله».

وبعد قليل سمعا وقع أقدام، فأدركا ان الطبيب قادم، ثم دخل شمر وهو يقول: «إن الطبيب بالباب». فأمر يزيد بدخوله.

وكان أبو الحكم شيخاً تدلت على صدره لحية بيضاء وبان الهرم على وجهه من تجعد بشرته، وقد تزمل بردائه على عجل ووضع القلنسوة على رأسه كيفما اتفق. فحيى الخليفة ووقف بين يديه، فابتدره هذا قائلاً: «اجلس يا أبا الحكم». فلما جلس قال له: «أتدري لماذا دعوناك؟»

قال: «لا يا مولاي».

قال: «دعوناك لنستعين بعلمك على رد كيد الخائنين أهل الغدر».

قال: «إني رهن إشارة أمير المؤمنين».

قال: «هيئ لنا جرعة عسل قاتلة، واسقها في الفجر لفتاة تراها جالسة مع عجوزنا في المقصورة. واحذر أن يعلم أحد بذلك».

قال: «اطمئن يا مولاي، إن هذا الأمر طالما قمت بأمثاله طوعاً لأمر أبيك ولم يعلم به أحد».

قال يزيد: «امض الآن وأعد العقاقير واستعن بحبيبنا عبيد الله على ذلك».

فوقف الطبيب وقبل يد الخليفة وخرج، ومضى الخليفة إلى فراشه وسار عبيد الله إلى غرفته. وسر شمر بنيل بغيته.

فلنترك أبا الحكم يهيئ جرعة العسل، ولنعد إلى عامر وما كان من أمره بعد خروجه من الدير، وكان قد غادره مرغماً وقلبه معلق بسلمى خوفاً عليها مما عرضت نفسها لها من الخطر العظيم. ثم قعد في مكان ظليل يشرف على المارة، حتى رأى موكب سلمى ماراً إلى دمشق، فانصدع قلبه وندم على مجاراتها وخاف أن تقع في الفخ فتذهب جهودها هي الأخرى ضياعاً.

ولبث في مكانه بالغوطة حتى توارى الموكب فلم يعد يستطيع صبراً، ونهض فسار إلى دمشق وهو يفكر في سبيل يدخل به دار الخليفة ليستطلع أحوال عبد الرحمن وسلمى. ومازال ماشياً حتى دخل دمشق، فتوجه إلى المسجد وهو يعلم أن دار الخليفة بجانبه. فلما أقبل على الجامع رآه مزدحماً بالمصلين وقد وقف يزيد يخطبهم، فأخذ مكانه بينهم، وراح يتفرس في الوجوه لعله يرى أحداً يعرفه ليستعين به أو يسترشده، فوقع نظره على فتى قابع بجانب أحد أعمدة المسجد يسمع الخطبة. وخيل إليه لأول وهلة أنه يعرفه، ولما تفرس فيه جيداً تذكر أنه رآه في غير ذلك المكان، ثم ما لبث أن عرف أنه الفرزدق الشاعر المشهور. وكان يومئذ في أول العقد الرابع من عمره لم يتزوج من «نوار» بعد. وكان سبب معرفة عامر به أن غالباً أبا الفرزدق جاء إلى الإمام علي بعد وقعة الجمل بالبصرة (سنة ٣٦هـ) ومعه ابنه الفرزدق وكان صبياً وقال لعلي: «إن ابني هذا من شعراء مصر فاسمع منه». فأجابه علي: «علمه القرآن». وكان عامر حاضراً ذلك المجلس. ثم شاهد الفرزدق بعد ذلك بأعوام في الكوفة وقد صار شاباً فذكره بما قاله الإمام فقال الفرزدق: «إن تلك الكلمة مازالت ترن في أذني وقد قيدت نفسي يومئذ عن الشعر فآليت ألا أقوله حتى أحفظ القرآن».

وكان عامر يعلم أن الفرزدق يكتم تشيعه لأهل البيت، فرأى أن يستعين به. فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس، تبعه ورآه يعرج نحو القصر فاعترضه وأوقفه وحياه، فعرفه الفرزدق ورحب به، ودعاه إلى منزله. فلما اختليا شكا له عامر حاله وهو يبكي، فاستغرب الفرزدق حكايته وقال: «ما العمل الآن، وما الذي أستطيعه؟. إن الأمر خطير كما ترى. ولو أن عبد الرحمن شاورني لأشرت عليه بألا يقدم على ما أقدم عليه. إن الأمر قد استتب للقوم، ولا حيلة في النجاة من أيديهم، ولن يفيدنا التمرد شيئاً».

فتنهد عامر وقال: «إنني لم أحبذ إقدامه على ذلك، ولكن لا خيرة في الواقع، وإنما أريد أن أصحبك إلى مجلس الخليفة فأقف ببابه في جملة الشعراء، لعلي أسمع ما يحدث لعبد الرحمن».

قال الفرزدق: «أجعلك راويتي». وكان الشعراء في الجاهلية وأوائل الإسلام يصطحبون الرواة حيثما رحوا، ولك شاعر راوية يحفظ شعره ويروي له أقوال الآخرين، فلما دخل الشاعر على الخليفة دخل راويته معه وجلسا متحاذيين. فاستحسن عامر هذا الرأي فتنكر في لباس الراوية، وخرج مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع الشعراء. ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليه في ذلك اليوم. وأخذ عامر يستطلع الأحوال ويتنسم الأخبار، ثم رأى عبد الرحمن لما ساقوه مغلولاً للمرة الأولى، وجاء بعض من كانوا معه فقصوا عليه نبا ما ظهر من بسالته فأعجب بذلك.

ولما استقدموه للمرة الثانية، جاء إلى عامر من أخبره بما كان من الأمر بقتله. فوقع في حيرة، وبحث عن الحجرة التي سجن فيها فعلم أنها حجرة واطئة كانت في عهد الرومانيين حماماً لوالي دمشق. فأخذ يفكر في حيلة ينقذ بها عبد الرحمن، على أن يفكر في أمر سلمى بعد ذلك.

وفيما هو يعلم فكرته تذكر الشيخ الناسك، فاستأذن الفرزدق وخرج مسرعاً إلى الغوطة حتى أطل على الدير فالتمس الناسك عند الجوزة، ولما سمع نباح الكلب قبل وصوله إليها استبشر وأسرع إلى الجوزة فرأى الناسك متكئاً فوق حجر، ولما اقترب منه عرفه فأرخى شعره على عينيه وصاح به: «أين سلمى؟»

قال: «إنها يا سيدي في قصر يزيد، ولا أدري ما آل إليه حالها، وإنما جئتك في أمر ذي بال لا أجد من أرجع إليه فيك سواك».

قال: «قل واتكل على الله». فقص عليه حديث عبد الرحمن باختصار، ثم قال: «وسيقتلونه هذه الليلة، سيقتله شمر اللعين، فما العمل؟»

فظل الشيخ الناسك مطرقاً ولم يجب. فسكت عامر أيضاً لعلمه أن النساك وأصحاب الكرامات لهم مناجاة خاصة يستخيرون الله بها. ثم قال الناسك: «ألم تعلم أين سجنوا عبد الرحمن؟»

قال: «إنه مسجون في الحمام القديم في قصر يزيد».

فرفع الناسك رأسه وقال: «أبشر بالفرج يا عامر. ولكن يجب أن تكون رجلاً وأن تكابد الخطر لإنقاذ عبد الرحمن».

فقال: «إني أفديه بروحي».

قال: «أتعرف الكنيسة جيداً؟»

قال: «وأي كنيسة يا مولاي؟»

قال: «كنيسة النبي يحيى التي جعل المسلمون نصفها مسجداً، وهي بجانب القصر».

قال: «نعم أعرفها، وقد كنت في صباي إذا جئت مع أهلي إلى دمشق صليت فيها ونحن يومئذ على دين النصرانية مثل سائر أهل كندة».

قال: «لا يخفى عليه أن أبنية الجامع والكنيسة والقصر متلاصقة متجاورة، فعليك أن تدخل الكنيسة، ولا حرج عليك في الدخول، ثم حاول أن تبقى بها إلى الليل. فإذا أمنت العيون فامش إلى جانب المحراب فتجد هناك قطعة من الرخام على هيئة أسد، فارفعها، وستجد تحتها سلماً قصيراً يؤدي إلى سرداب تحت الأرض، فامش فيه متحسساً الجدار بيدك اليسرى. إلى أن تصل بعد دقائق إلى باب صغير يستطرق إلى الحمام. فإذا وفقت للوصول إليه وعبد الرحمن به فحل قيوده وعد به في نفس السرداب، واجعل يدك اليسرى دليلك أيضاً، وسيطول بكما المسير، ولكن لا تخف، فإنكما ستصلان إلى مكان خارج سور المدينة. فإذا نجوتما فتعاليا إلي».

وكان الناسك يتكلم وعامر يصغي لقوله، وكأنما خامره الشك صحة كلامه وخاف أن يعتمد على نصيحته فلا يجد سرداباً ولا سبيلاً وتكون الفرصة قد ضاعت.

ولحظ الناسك ذلك منه فقال: «لا تشك يا عامر فيما قلته لك، ولا تظن قولي رجماً بالغيب.إني أعرف المكان جيداً، وأمثال هذه السراديب كثيرة في دمشق، وأكثرها كان أقنية للماء في عهد الروم ثم اعتاضوا عنها بأقنية أخرى جديدة فظلت خالية. ولا أخفي عليك أنك قد تلقى مشقة كبيرة في اجتياز مثل هذا السرداب لأنه مهجور من زمن قديم، وربما انسد بعض أجزائه أو تهدم، ولذلك قلت لك أن هذا العمل يحتاج إلى شجاعة وإقدام».

فاطمأن بال عامر وتحقق وجود السرداب، ولم يعبأ بما يحول دون المسير فيه. ونهض فقبل يد الناسك وهو لا يري وجهه، فقبل الناسك رأسه ودعا له بالتوفيق. فاستبشر عامر بدعائه لإيمانه بكرامته، وأسرع إلى دمشق وسار تواً إلى الكنيسة وهوي عرف مدخلها ويسهل عليه التظاهر بالنصرانية لأنه قريب العهد بها.

وصل عامر إلى الكنيسة ساعة الغروب، فاشتم رائحة البخور وسمع أصوات المنشدين وهو لا يزال في صحنها، فعلم أن الناس في الصلاة فدخل في جملة الداخلين، ولم ينتبه له أحد لأن كثيرين من أمثاله من نصارى البادية، وأكثرهم من عرب غسان، كانوا إذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها. وكان الغسانيون قد أسلم معظمهم على أثر الفتح. إما فراراً من الجزية وإما تزلفاً إلى المسلمين، وظل بعضهم على النصرانية وأقاموا بالبلقاء وحوران، وكانوا يأتون دمشق لشراء ما يحتاجون إليه من أسواقها، ويدخلون كنائسها ليتبركوا بالصلاة.

فلما دخل عامر الكنيسة لم يستغرب أحد دخوله فالتمس مكاناً منعزلاً انزوى فيه، بينما الصلاة قائمة والأناشيد تصدح والبخور يتصاعد، وراح يفكر في حاله وما هو مقتحمه من الخطر الشديد، ولم يكن يبالي بالخطر لو أنه كان واثقاً من نجاح مسعاه.

ولما انتهت الصلاة، وتفرق الناس تظاهر بالنعاس والضعف، حتى خلت الكنيسة من المصلين وصعد القسيسون إلى غرفهم، فأخذ الخادم (القندلفت) يمر على الشموع ليطفئها، فتذكر عامر مهمته، ورأى ألا بد له من مصباح أو شمعة يستضيء به في السرداب. فعول على سرقة بعض الشموع التي على المذبح، ولكنه كان يخشى الخادم. وفيما هو يفكر في ذلك دنا هذا منه كلمه مستفهماً عن غرضه. وكان الخادم من أهل دمشق وقد تعلم العربية. فقال له عامر: «إني رجل مريض وقد نذرت أن أبيت لليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلي أبرأ من دائي».

فاستحسن إيمانه، ولكنه استطال إقامته معه طول الليل فقال له: «إنني مكلف بإغلاق الكنيسة قبل انصرافي».

فقال عامر: «لا بأس، أغلق الباب وخذ مفتاحه معك، وأبقى أنا هنا إلى الصباح، فقد بدأت أشعر بالراحة وعسى أن ينفعني إيماني».

فلم ير الخادم بأساً من إجابته إلى طلبه ولاسيما أن الكنيسة ستكون مغلقة ومفتاحها معه، فجاءه بزيت من زجاجة مقدسة كان في حق أمام أيقونة العذراء ودهن

به رأسه وقال له: «إن بركة العذراء ستعجل شفاءك». ثم دعا له بالشفاء وتركه وأغلق باب الكنيسة وخرج إلى غرفته.

ولبث عامر بعض الوقت متشاغلاً بالتأمل فيما حوله على ضوء المصابيح الصغيرة المعلقة أمام الأيقونات الكبرى، وكان في بعض هذه الأيقونات صورة كبيرة ظهرت له مجسمة، وزادها فراغ المكان تجسماً ورهبة، فاقشعر بدنه وخيل إليه أنها أشباح حية ترقب حركاه وأبصارها متجهة كلها نحوه. ثم تذكر عبد الرحمن وما هو فيه من الخطر فهب من متكئه وأصاخ بسمعه فلم يسمع صوتاً ولا حركة.

وكان قد عرف مكان قطعة الرخام التي قد وصفها له الناسك، فنهض وسار حتى وقف بقربها، وأعاد فحصها فإذا هي كبيرة وليس فيها حلقة يجذبها بواسطتها فاستل خنجره وعاجل به مواضع اتصالها بما يجاورها ومازال يحاول زحزحتها حتى توسم قرب اقتلاعها، فتركها وأخذ في جمع بعض الشمع ليستنير به في ذلك السرداب، وبعد أن ادخر طائفة منه في جبيه أشعل شمعة من مصباح، وانتزع قطعة الرخام محاذراً أن يسمع لذلك صوت. وما كاد يفعل حتى أحس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيه رائحة عفونة، فاستبشر، وأمن جانب الاختناق في السرداب. ثم هبط درجات السلم الحجرية، والشمعة في يده حتى وصل قاع السرداب فغاصت قدماه في بقايا مياه وأوحال، وحام البعوض حول الشمعة، ولم يخط بضع خطوات حتى هبت نسمة قوية أطفأت الشمعة فأظلم السرداب. فرمى الشمعة ومشى يتحسس ويتلمس ويساره على الحائط وقد أحس برطوبته، وقلبه يخفق، وهو لا يسمع غير طنين البعوض، ولا يرى شيئاً لشدة الظلام. تارة يغوص في الوحل، وطوراً يعثر بالأحجار، حتى انتهى إلى مكان جاف فأسرع في خطاه وهو يحملق ويصيخ بسمعه لعله يرى بصيصاً أو يسمع حفيفاً.

وفيما هو في ذلك سمع صوتاً بعيداً لم يتبينه لبعده، فأسرع السير نحو مصدره ويده اليسرى على الحائط، ومازال الصوت يقترب منه حتى عثرت رجله بحجر فوقف، وراح يتحسس الطريق بيديه، فإذا هو عند آخر السرداب وأمامه درجات لابد له من صعودها. وقبل أن يضع قدمه على أول درجة رأى نوراً ضعيفاً منبعثاً من شقوق باب صغير في أعلى السلم وسمع قائلاً يقول: «لا تهددني بالقتل فإني لا أخاف الموت».

علم عامر أنه وصل إلى السجن وعرف صوت عبد الرحمن فصعد الدرجات حتى دنا من الباب ووضع عينيه على شق فيه وحدق فيما هنالك فرأى رجلاً واقفاً كان بيده

مصباح فوضعه على حجر بارز في أحد الجدران ودنا من رجل آخر جالس والأغلال في يديه ورجليه. وتفرس عامر في الرجل الواقف فعرف من بياض برصه أنه شمر، ورأى في يده سيفاً مسلولاً. وعرف أن الجالس عبد الرحمن. ولم يكد عامر يراهما حتى سمع شمر يقول: «يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك! أنت تقول اقتلوني لا أبالي. وكانت هي تقول كذلك، وقد قتلتها منذ لحظة، وأتيت الساعة لأقتلك. ولكنني قبل أن أخرج روحك من جسدك أطلب إليك بأمر أمير المؤمنين أن تلعن علياً فإذا فعلت علمت أنك نادم على ما فرط منك من تعمد قتل الخليفة، فأرى..».

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال: «أتخوفني يا شمر بقتل سلمى وهي بعيدة عنكم لا تنالها أسيافكم؟»

فضحك شمر وقال: «إنك جاهل مغرور، لهذا لا تصدقني. لقد جئت بسلمى إلى هذا القصر صباح اليوم ليتخذها الخليفة زوجة، وقد ماتت منذ ساعة. فإذا شئت أن تعلم كيف ماتت فاعلم أنها تجرعت السم بالعسل. وأما أنت فسأميتك بحد هذا السيف». قال ذلك وهز السيف بيده فاهتزت أعضاء عامر وتحفز لخلع الباب ولكنه رأى شمر قد وقف ولم يقترب من عبد الرحمن. أما هذا فلما سمع بموت سلمى صاح صيحة قوية وحاول النهوض ولكن الأغلال الحديدية حالت دون ذلك، فسمع عامر صلصلتها، ثم سمعه يقول: «تباً لكم يا أهل الغدر. أتقتلون سلمى وتحسبونني أريد البقاء بعدها؟.. ثم تكلفونني أن ألعن خير الناس بعد الرسول ثمناً لهذا البقاء!. لقد قيدتم يدي ورجلي والموت أقرب إلي من حبل الوريد، ولكنني لا أخاف منه. عجل بقتلي يا شمر، لألقى سلمى في مكان لا غدر فيه ولا خيانة. ولكن.. يا ليتهم اختاروا جلاداً غيرك لأنني أكره أن أموت بسيف نذل لئيم مثلك».

فقطع شمر كلامه وهز سيفه وأجابه بفتور وصوت منخفض وهوي يبتسم: «لم يختاروا غيري لهذه المهمة، وسأقتلك بهذا السيف الصقيل».

فصاح عبد الرحمن: «اقتل قتلك الله. لو أنكم أبقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من اجلها، ولكنكم الحقتموها بأبيها. فألحقونى بهما. آه يا سلمى!. قتلوك بلا رحمة. آه ما أقسى قلوبهم. اقتلني يا شمر. ولكن تمهل قليلاً. دعني أندب سلمى. أعوذ بالله من شروركم. كيف تقتلون فتاة طاهرة؟ أما تخافون الله؟ أما تخافون يوم الحساب؟..»

فابتدره شمر قائلاً: «لقد كنت عازماً على استبقائك برهة لأتلذذ بعذابك ولكنني أراك تطلب البقاء لتندب حبيبتك فما أنا مبق عليك. وهاأنذا قاتلك الساعة فاختر لك

موتة». قال ذلك ووخزه برأس السيف في كتفه وهو يقهقه، فصاح فيه عبد الرحمن: «اضرب يا شمر، اقتل، اضرب عنقي». قال ذلك وحرق أسنانه ثم قال: «آه! لولا خوفي من أن تظن بي الخوف من الموت لاستمهلتك لأندب سلمى».

كان عامر ينظر ويسمع، فلما سمع بمقتل سلمى وكان يحسبها في أمان، ورأى ما رآه من شمر، خاف أن يسبقه بالسيف فيقتل عبد الرحمن فتتضاعف المصيبة، فأسند ظهره إلى الباب وتجمع بكليته وخنجره مسلول بيده ورفس الباب رفسة كسره بها ووثب حتى وقف في وسط الحجرة. فأجفل شمر ووقع السيف من يده ثم هم بأن يلتقطه فابتدره عامر بالخنجر وطعنه في جنبه فوقع يتخبط في دمه ولكنه لم يمت. وتحول عامر إلى عبد الرحمن وحل قيوده وكسرها وعبد الرحمن مأخوذ يحسب نفسه في منام ولا يدري ما يقول، ولم يزد عامر على قوله: «لا تخف يا عبد الرحمن جاءك الفرج». وأخذ في حل القيود ولم يبق في الحجرة صوت غير أنين شمر وهو ملقى على الأرض.

فلما فرغ عامر من حل القيود قال له: «اتبعني». وعاد إلى السرداب. فمشى عبد الرحمن في أثره فقال له عامر: «امسك بذيل ردائي بيمينك وتحسس الحائط باليسرى». ففعل ومضى في أثره وهو ما زال مأخوذاً. فقضيا في السرداب زمناً طويلاً ولم يخرجا إلى النور فظن عامر أنه أخطأ الطريق، ثم أحس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما، فحدثته نفسه أن يعود ثم تذكر الناسك وما أنذره به مما سيلاقيه من المشقة والخطر فاستمر في طريقه حتى اشتد بهما الضيق وأوشكا أن يختنقا من كثرة العفونة وقلة الهواء. ولحظ عبد الرحمن حيرته، فقال له: «لا تأسف على حياتنا يا عماه. لا بأس من موتنا معاً في هذا السرداب لا يعلم بنا أحد فإني لا أرى الحياة عزيزة بعد موت سلمى. وأما أنت..»

فابتدره عامر قائلاً: «وأنا لا أحب البقاء بعدكما، ولكنني لا أريد أن نموت قبل الانتقام من هؤلاء الأشرار. واأسفاه!. أرانا مشرفين على الموت إذا لم يدركنا منفذ نتنفس منه الهواء».

فقال عبد الرحمن: «دعنا نمت يا عماه. يا ما أحلى الموت فإنه يقربنا من حجر وابنته. لا تأسف على الحياة بعدهما. ولكنني أحب قبل الممات أن أعلم كيف قتلوها وما الذي أوصلها إليهم وكيف وقعت في الفخ؟»

فقص عليه عامر كل ما وقع له مع سلمى من بعد ذهابه، وعبد الرحمن يعجب بشهامتها ويتنهد ويحرق أسنانه حتى أتى على آخر الحديث.

وفيما هما في تلك الحال سمعا دقاً على سطح السرداب فوقهما كأنه نبش بالمعاول. فقال عامر: «إني أسمع نبشاً فعسى أن يكون الله قد فتح علينا». فأصاخا بسمعيهما وإذا بصوت النبش يتعاظم، وبعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتقهقرا إلى الوراء، ثم فتحت كوة في السقف دخل منها نور ضئيل كأنه نور الفجر وجرى النسيم فانتعشا. فقال عامر: «لقد فتح الله علينا باباً للفرج». وهما بالمسير فسمعا جلبة وفيها صوت رجل يقول لرفيقه: «إنهم أبوا إلا أن يدفنوها في هذا الفجر وما ضرهم لو صبروا إلى الصباح».

فأجابه الآخر: «يظهر أنك لم تفهم السر يا أحمق ألا تعرف عادة الخليفة في مثل هذه الحال؟»

قال: «وما هي عادته يا فصيح؟»

قال: «إن هذه المسكينة لم تمت حتف أنفها، ولكنهم أماتوها بالسم وأظهروا أنها ماتت بالمرض، وكم من مرة قمت بمثل هذه المهمة في أيام معاوية فقد كان أكثر ارتكاباً لهذا المنكر، وكلما أراد قتل رجل سقاه قدحاً من العسل وأمر بدفنه والناس يحسبونه مات بعلة. ولكنه قلما صنع ذلك بالنساء».

فقال ذاك: «وما عسى أن يكون من أمر هذه الفتاة وهي عروس الخليفة ولم تأت قصره إلا في صباح الأمس؟»

فأجابه الآخر وقال: «ما لنا ولكثرة الكلام؟ دعه يقتل من أراد ونحن نحفر القبور والله يجزي على الذنوب!»

وكانا يتكلمان وينبشان فما أحسا إلا والمعول وقع في السرداب فصاح أحدهما: «إني أراني فوق بئر وأخاف أن يصعد إلينا منها عفريت أو جان!»

أدرك عامر لما سمع الحديث أنهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة وأنهم يحفرون قبر سلمى، وعلم عبد الرحمن ذلك أيضاً فأحب أن يتكلم ولكن عامر أمسك بيده وأشار إليه أن يسكت ريثما يخرجان من السرداب، فسكت عبد الرحمن ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه فعطس عطسة دوى لها السرداب فأجفل الرجلان وصاح أحدهما: «ألم أقل لك أن المكان مسكون؟ هيا بنا قبل أن تدركنا العفاريت». قال ذلك وفر وتبعه رفيقه،

ولم يمض قليل حتى ساد المكان سكون تام. فمشى عامر وعبد الرحمن حتى خرجا من السرداب، وتلفتا فإذا هما في مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر، فأسرعا بالخروج من المقبرة وعبد الرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة وعامر يلح عليه بالخروج لئلا تدركهما الشرطة ويهون المصيبة عليه، حتى إذا بعدا عن المدينة وأوغلا في الغوطة لجآ إلى شجرة في مختبأ وقال عامر: «ارجع يا بني إلى رشدك واصبر إن الله مع الصابرين، هيا بنا إلى الشيخ الناسك فإنه في انتظارنا قرب الدير فوق قبر حجر».

فقال عبد الرحمن: «وسلمى؟ أأتركها؟ أتركها وحدها بين هذه القبور؟..». قال ذلك وغلب البكاء عليه فشاركه عامر في البكاء ولكنه تجلد وقال له: «اصبر يا عبد الرحمن وتدبر الأمر بالحكمة. إن بقاءنا هنا أو ذهابنا إلى المقبرة أو رجوعنا إلى الشام لا يفيد شيئاً. والحق أني كنت في شك من مقتل سلمى، وكنت عازماً على البحث عنها، ولكن ها قد تحققنا وقوع المصيبة فلم تبق لنا فائدة من البحث. وعلينا أن نصبر صبر الرجال حتى نشفي غليلنا بالانتقام».

فقال عبد الرحمن: «نعم، لابد من الانتقام، ولكن كيف؟. إني لا أرضى الانتقام لسلمى إلا بقتل قاتلها الذي يسمي نفسه خليفة. إن قتله والله عوض قليل عن سلمى حبيبة قلبي وروحي وابنة عمي. آه يا سلمى!. وكيف أتركها تدفن وأنا حي وهي إنما استقبلت الموت من أجلي، ولولاي لم تدخل قصر يزيد ولا أصابها ما أصابها. ولكن كان موتها سبباً لنجاتنا من الموت؟ فلولا أنهم جاءوا لحفر قبرها لكنا قبرنا قبلها في السرداب، آه يا عماه ليتني قبرت وكان قبري تحت قبرها. لنكون متجاورين وتختلط عظامنا وتمتزج بقايانا كما امتزجت روحانا!»

قال ذلك وخنقته العبرات. فتركه عامر ينفس عن نفسه بالبكاء، وبكى هو الآخر شجاعة سلمى وحسن أخلاقها ما شاء. وبعد قليل عاد إلى التخفيف عنه فقال: «عن سلمى تستحق أكثر من هذا، ولو قتلنا أنفسنا عليها ما وفيناها حقها. ولكن هذا يسر أعداءنا. وخير منه أن نتدبر الأمر بالحكمة ونسعى للانتقام بتعقل ودراية لنظفر به ونرضي روح سلمى في قبرها». قال ذلك وتذكر ما أوصته به لما فارقها في الدير فالتفت إلى عبد الرحمن وقال: «أعرني سمعك لأبلغك وصية سلمى لك يوم سارت إلى يزيد».

فقال: «قل حدثني عن سلمى ماذا قالت؟»

قال: «لما ودعتها في ذلك اليوم قالت لي: (إذا أنا مت وبقي عبد الرحمن حياً فحيه وقل له أن سلمى آثرت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك، وإذا بقيت أنت حياً فإن عظامها تتهلل في أعماق القبر)..»

فصاح عبد الرحمن: «أتموت هي في سبيل حبي وأراهم يحفرون قبرها ثم أهرب؟!»

قال عامر: «لقد ذكرت سلمى أن بقائك حياً بعدها يفرح قلبها وهي في القبر. فهيا بنا إلى الشيخ الناسك نستشيره، فإنه والله ذو فضل علينا، ولولاه ما وفقت إلى إنقاذك، وإني لا أشك في أنه من الصالحين».

وسار عامر وعبد الرحمن في أطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما أحد حتى اقتربا من الجوزة، فرأيا الناسك راقداً فوق قبر حجر. وقبل وصولهما نبح الكلب فجلس الناسك وتطلع فلما رآهما قادمين أرخى شعره على وجهه ونادى عبد الرحمن قلباه وهو يبكي ويقول: «ما بالك لا تسألنا عن سلمى؟»

فوقف الناسك وصاح: «ماذا صنعوا بها؟. لا.. لم يقتلوها!»

فقال عبد الرحمن: «صدقت إنهم لم يقتلوها بالسيف، ولكنهم قتلوها بالعسل!»

فأطرق الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد وقال: «من أخبركم بذلك؟». فقص عليه عامر كل ما علماه.

فقال: «إن الله لا ينصر القوم الظالمين».

فقال عبد الرحمن: «أرشدنا يا شيخنا. إننا لا نرى سبيلاً إلى الحياة بغير الانتقام. آه ما أحلى الانتقام».

فبهت الشيخ هنيهة ثم قعد وهو يقول: «اخرجا من هذه البلاد، لم يبق لكما فيها مأرب».

قال عبد الرحمن: «كيف نخرج منها وقد دفنوا سلمى فيها؟»

قال: «اخرجا إلى شركائكما في الثأر. اخرجا إلى مكة فإن فيها ابن بنت الرسول، وهو المطالب بالخلافة وهي حق له وحده. اذهبا إليه على عجل وانصراه فإذا فاز بالخلافة فقد تم لكما الانتقام. إن البقاء هنا لا يجديكما نفعاً والأمر أعظم مما تظنان».

فقال عامر: «وكيف ذلك يا مولاي، ماذا حدث؟»

قال: «قد علمتما أن يزيد لما مات أبوه وقام يدعو الناس إلى بيعته كان الحسين في المدينة ومعه غيره من أبناء الصحابة وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام. وكان عامل معاوية على المدينة يومئذ ابن عمه الوليد بن عقبة، فكتب إليه يزيد بموت معاوية ويطلب إليه أن يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير. فجاءه الكتاب وعنده مروان بن الحكم فاستشاره في الأمر فقال مروان: (أرى أن تدعوهما الساعة وتأمرهما بالبيعة). فبعث إليهما وكانا في المسجد، فلما وصل إليهما الرسول وأخبرهما بطلب

الوليد قالا: (انصرف الآن وسوف نلحق بك). ثم قال ابن الزبير للحسين: (ترى فيم بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟). فقال الحسين: (أظن طاغيهم قد هلك فبعث إلينا ليأخذ منا البيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر). قال عبد الله: (فماذا أنت صانع؟). قال الحسين: (أجمع أصحابي الساعة ثم أمشي إليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه). قال عبد الله: (إني أخاف عليك إذا دخلت). قال الحسين: (لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع). ثم قام وجمع إليه أصحابه وأهل بيته حتى أقبل على الوليد وقال لأصحابه: (إني داخل فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا علي بأجمعكم وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم). ثم دخل الحسين على الوليد ومروان عنده، فسلم وقال مروان: (الصلة خير من القطيعة، والصلح خير من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا أصلح الله ذات بينكما). وجلس الحسين فأقرأه الوليد الكتاب، ونعى له معاوية ودعاه إلى بيعة يزيد، فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وقال: (أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سراً، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً).. فقال الوليد وكان يحب المسالمة: (انصرف). فقال مروان للوليد: (إذا فارقك الساعة ولم يبايع ما قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، أحبسه فإما بايع وإلا ضربت عنقه). فوثب عند ذلك الحسين وقال: (يا ابن الزرقاء، أأنت تقتلني أم هو؟ كذبك والله). ثم خرج حتى أتى منزله. فقال مروان للوليد: (عصيتني، لا والله لا يمكنك منه نفسه بمثلها أبداً). فقال الوليد: (والله يا مروان ما أحب أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأن أقتل حسيناً إن قال لا أبايع، والله إني لا أظن من يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة). قال مروان: (قد أصبت). قال هذا وهو غير حامد له رأيه.

«أما عبد الله بن الزبير فلما أتاه رسول الوليد أجاب بقوله: (الآن آتيكم). ثم أتى داره فتمكن فيها، ولما بعث إليه الوليد وجده قد جمع أصحابه واحترز، فألح عليه الوليد وهو يقول: (أمهلوني). فبعث إليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له: (يا ابن الكاهلية لتأتين الأمير أو ليقتلنك). فقال لهم: (والله لقد استربت بكثرة الإرسال، فلا تعجلوني حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني برأيه). فبعث إلى أخاه جعفر بن الزبير، فقال جعفر للوليد: (رحمك الله، كف عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته، وهو يأتيك غداً إن شاء الله، فمر رسلك فلينصرفوا عنه). فبعث الوليد إليهم فانصرفوا، وخرج ابن الزبير من ليلته فأخذ طريقه إلى مكة هو وأخوه ليس معهما ثالث. فسرح الوليد الرجال في طلبه

فلم يدركوه، فرجعوا وتشاغلوا عنه بالحسين ليلتهم. فقال لهم الحسين (أصبحوا ثم ترون ونرى). فكفوا عنه، فسار من ليلته وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه وجل أهل بيته. وكان ذلك بعد ليلة من خروج ابن الزبير.

«وقبل أن يخرج الحسين من المدينة أشار عليه أخوه محمد بن الحنفية أن يدعو الناس إلى بيعته ويصبر على ذلك. فلما أتى مكة تقاطر إليه الناس ليبايعوه، ولكن بعض الناس أشاروا عليه أن يقدم الكوفة ويستنصر أهلها. وأشار عليه آخرون بالبقاء في مكة يستظل بالحرم لأن أهل الكوفة لم يخلصوا في نصرة أبيه من قبله. وأظنه بعث بابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليرى رأي أهلها في قدومه إليهم. فإذا تمت له بيعتهم وجاء الكوفة فسيبايعه العراق والحجاز فيتم له الأمر ويفشل يزيد. وفي فشله انتقام كاف لكما. فاذهبا إلى مكة وانصرا الحسين فإنه أولى الناس بهذا الأمر، والله ينصركم أجمعين».

فلما سمعا قوله استحسناه ونهضا، فقبل رأسيهما مودعاً دون أن يريا وجهه، وأوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد أو أحد رجاله.